مع الماضي والحاضر، محاولاً، قدر الامكان، التخلّص من آثار علاقاته مع الحزب وبناء عالم جديد يتناقض مع الصراع القائم الذي يشوّه الحياة في البلاد.

«بوق في الوادي»

رواية «بوق في الوادي» هي محاولة للمصالحة مع الواقع خارج اطار الايديولوجيا (تفريغ الشخصيات من انتماءاتها الايديولوجية والواقعية ليسقط الكاتب عليها ما يريده) وخارج اطار الصراع العام. وقراءة مدققة للرواية تبدي لنا ان الرواية لم تستطع نقل الحدث الخاص المهزوز الى المستوى العام؛ فظلّت القصة المحورية في الرواية تتأرجح كقصة فردية، قد تحدث وقد لا تحدث؛ لكن ما يهم القارىء هو انها لا تمّت الى عالمه ـ عالم الصراع ـ بصلة.

لقد افرغ ميخائيل غضبه في رواياته السابقة، وها هو يعاود نبش الواقع من خلال ازدواجية عالمه المنقسم على ذاته: العربي واليهودي.

هدى فتاة عربية اسرائيلية تحلم برجل شاعر كيهودا عميحاي، وهي مغرمة بالحياة الاسرائيلية وتعيش حياة شبه هادئة مع جدها الياس واختها ماري في وادي النسناس.

القادم الجديد، من روسيا، أليكس، يأتي مع بوقه ليسكن في العمارة التي تسكن فيها هدى، التي تقع في حبه وتصاحبه على نيّة الزواج منه. سنة ١٩٨٢، يقوم حكّام اسرائيل بشن هجوم همجي على لبنان؛ وبنهاية مفتعلة يسقط أليكس ضحية في الحرب ويترك لنا الكاتب باب النقاش مفتوحاً حول امكان نجاح الزواج بين عربية ويهودي، وكأن الحل يكمن بالزواج وبالعلاقات بين الافراد.

بمثل هذه الاحداث التي يصعب ان تنقل حقيقة وابعاد الصراع والوضع يقدّم ميخائيل الينا حبكة ضعيفة وغير مستساغة، ويتركنا ازاء اسئلة كثيرة. وأحد هذه الاسئلة هو: لماذا لم تبدأ الرواية من بعد منتصفها، اي بارتباط هدى وأليكس، والصراع والخلاف الذي يترتّب على هذا الامر؟ او تأثير الاوضاع على زواجهما؟ لكن الكاتب، وهذا حقه، بدلاً من ذلك ادخلنا الى قصة رومانسية ولم يدخل الى جوهر الأمر، وبقي يبحث في سطح الامور، وقدّم الينا، في النهاية، رواية نستطيع ان نعتبرها سيرة ذاتية لفتاة معقدة، تشعر بالنقص، وتحاول ان تكون اسرائيلية. والكاتب لا يزوّجها ـ لكي لا يدخل في تناقضات الموضوع ـ بل يتركها تواجه ازمة موت حبيبها في الحرب، ونرى انه من حق ماري ان تعلن: «الآن، كل شيء سيتغير. وقعت ماري في حب صاحب بوق» (ص ٦٧). ولم يتوقف الامر عند هذا الحد، بل لم يترك الكاتب للقارىء مناسبة الاّ وقدّم اليه التقسيم الطائفي لابطال القصة: فابو نخلة المسلم، صاحب العمارة، أتي لخطبة الحفيدة المسيحية ماري لابنه المسلم زهير. وهدى اجتهدت في التنكر لهويتها القومية (ص ٢٠) وكأن هذا هو الشرط الاساسي لدخولها جنة الحياة الاسرائيلية! وشخصية هدى نمّطت وقولبت؛ فهي حلمت، بعد رفضها الزواج من بهيج، بأنها قد تحب قواداً (ص ٧٠)؛ والازعر في الرواية هو العربي زهير، الذي يقوم أليكس بردعه عن ماري واسالة دمه. والكاتب نمّط: «اليوم جاءت مع ابن اختها، المحامي حليم، شخصية محترمة ولطيفة في الوادي. كان سميناً جداً. جاء، الآن، محتذياً شبشباً ومرتدياً معطفاً طويلاً فوق البيجاما. كان، من عادته، ان يتأنق في ملبسه ويسير في الوادي برأس مرفوع. عرب كثيرون يرفعون رأسهم، اليوم، في البلاد؛ لكن المحامي السمين رفع رأسه في بداية سنوات الخمسين، في وقت بدا لقسم من العرب انفسهم انه لمن المخجل ان تكون عربياً» (ص ٧٥).

وتنازعت هدى مشاعر متضاربة: هل تنام مع اليهودي أليكس، ام لا؟ هدى معجبة بأليكس